"الرِّسالة الهزليَّة" لابن زيدون
رؤية أخرى
"The Humorous Epistle" by Ibn Zaydun
A New Perspective

إبراهيم عوض *
ibrahimawadoxford82@gmail.com

الملخَّص:

تتناول هذه الدراسة رؤية جديدة لرسالة ابن زيدون التي تُعرف باسم "الرسالة الهزلية"، وهي المنسوبة إلى "ولّادة بنت المستكفي"، ولكنها في الأصل من إنشاء ابن زيدون، كتبها ساخرًا على لسانها ليهجو خصمه الوزير ابن عبدوس. ورغم تسميتها بالهزلية، فإن طبيعتها أقرب إلى التهكم؛ إذ تتجاوز الإضحاك إلى السخرية اللاذعة والإهانة المستترة. الفرق الأساس بين الهزل والتهكم أن الهزل يهدف للإمتاع، بينما التهكم يحمل احتقارًا خفيًّا تحت قناع ساخر.

وتُفتتح الرسالة بـ"أما بعد" في غير موضعها المعتاد، كضربة مفاجئة تقحم القارئ في أجواء هجائية قاسية. الرسالة تستعرض قبح ابن عبدوس وضعفه وادعاءه، لكنها انقلبت على صاحبها؛ إذ أغضبت ولّادة وأبعدتها عن ابن زيدون، فخسر حبيبته وفضّلَت خصمه عليه.

بذلك تحوّل النص إلى وثيقة تفضح انفعاله وضعفه أكثر مما تُهين عدوه. ومن خلال مقارنة بأساليب هزلية خالصة ككتابات ابن سودون، يظهر بوضوح أن رسالة ابن

* أستاذ بكلية الآداب – جامعة عين شمس.

زيدون ليست هزلًا للتسلية، بل تهكمًا مليئًا بالحقد والمرارة. في النهاية، تمثل هذه الرسالة مثالًا على ذكاء بلاغي أسيء توظيفه، فكان وبالًا على كاتبه.

الكلمات المفتاحية: ابن زيدون؛ الرسالة الهزلية؛ الأدب الأندلسي؛ النثر الفني.

Abstract:

This study presents a new perspective on Ibn Zaydun's epistle known as "The Humorous Epistle," which is attributed to Wallada bint al-Mustakfi but was in fact authored by Ibn Zaydun himself. He wrote it mockingly in her voice to satirize his rival, the minister Ibn Abdus. Although it is labeled as "humorous," its tone is closer to sarcasm, as it goes beyond mere amusement to biting satire and veiled insult. The fundamental difference between humor and sarcasm lies in their intent: humor seeks to entertain, while sarcasm conceals disdain beneath a playful surface.

The epistle begins with "Amma Ba'd" (a classical Arabic formula akin to "Now then") in an unusual context, acting as a sudden jolt that thrusts the reader into a harsh satirical atmosphere. The epistle portrays Ibn Abdus as repugnant, weak, and pretentious, but ultimately it backfires on its author. Wallada was angered by it and distanced herself from Ibn Zaydun, favoring his rival instead.

Thus, the text transforms into a document that exposes the writer's emotional turmoil and weakness more than it humiliates his enemy. When compared to purely humorous works, such as those by Ibn Sudun, it becomes evident that Ibn Zaydun's epistle is not light-hearted entertainment, but a piece of sarcasm laced with bitterness and spite. In the end, this epistle stands as an example of rhetorical cleverness misapplied—one that turned to the detriment of its author.

Keywords: Ibn Zaydun, The Humorous Epistle, Andalusian Literature, Artistic Prose.

أولًا– نص "الرِّسالة الهزليَّة":

"أما بعد، أيها المصاب بعقله، الموزَّط بجهله، البيِّن سَقَطُه، الفاحش غلطُه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن العُجْب أَكْذَب، ومعرفة المرء نفسه أَصْوَب، وإنك راسلتني مستهديًا من صلتي ما صَفِرَتْ منه أيدي أمثالك، متصديًا من خلّتي ما قُرِعَتْ دونه أنوفُ أشكالك، مرسلا خليلتك مرتادة، مستعملا عشيقتك قَوّادة، كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إليَّ، وتخلُف بعدها عليَّ.

ولســـتَ بـــأول ذي همـــةٍ دعتْـــه لمـــا لـــيس بالنائـــل[1]

ولا شك أنها قَلَتْك إذ لم تضنَّ بك، ومَلَّتْكَ إذ لم تَغَرْ عليك، فإنها أَعْذَرَتْ في السفارة لك، وما قصَّرت في النيابة عنك، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسمٌ أنت جسمه وهيولاه، قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال، حتى خلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضتَ منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسَلَتْ عنه، وأن قارون أصاب بعض ما كنزْتَ، والنّطِفَ عثر على فضل ما رَكَزْتَ، وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارَا في طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك، والضَّحاك استدعى مسالمتك، وجَذِيمة الأبرش تمنى منادمتك، وشيرين قد نافست بُورَانَ فيك، وبلقيس غايَرَتِ الزَّبّاءَ عليك، وأن مالك بن نويرة إنما رَدِفَ لك، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك، وكُلَيْب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك، وجسّاسا إنما قتله بأنفتك، ومُهَلْهِلًا إنما طلب ثأره بهمتك، والسَّمَوْءَل إنما وفي عن عهدك، والأحنف إنما احتبى في بُرْدِك، وحاتما إنما جاد بوَفْرك، ولَقِيَ الأضياف ببِشْرك، وزيد بن مهلهل إنما ركب بفخذيك، والسُّلَيْك بن السُّلَكَه إنما عدا على رجليك، وعامر بن مالك إنما لاعب الأسنّة بيديك، وقيس بن زهير إنما استعان بدهائك، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح

ذكائك، وسَحْبان إنما تكلم بلسانك، وعمرو بن الأهتم إنما سُحِر ببيانك، وأن الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك، والحمالات بين عبس وذبيان أُسْنِدَتْ إلى كفالتك، وأن احتيال هرم بن سنان لعلقمة وعامر حتى رضيا كان عن إشارتك، وجوابه لعمر، وقد سأله عن أيهما كان ينفّر، وقع عن إرادتك، وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجدك، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك، والمهلَّب أوهن شوكة الأزارقة بأَيْدِك، وفرَّق ذاتَ بينِهم بكيدك، وأن هرمس أعطى بلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما نقل عنك، وبطليموس سوَّى الأسطرلاب بتدبيرك، وصوَّر الكرة على تقديرك، وبقراط عَلِمَ العلل والأمراض بلطف حِسّك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حَدْسك، وكلاهما قلدك في العلاج، وسألك عن المزاج، واستوصفك تركيب الأعضاء، واستشارك في الداء والدواء، وأنك نهجت لأبى معشر طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء، وأعطيت النَّظّام أصلا أدرك به الحقائق، وجعلت للكندي رسما استخرج به الدقائق، وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار والأنقار توليدك وابتداعك، وأن عبدالحميد بن يحيى بارِي أقلامك، وسهل بن هارون مدوّن كلامك، وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مستفتيك، وأنك الذي أقام البراهين، ووضع القوانين، وحَدَّ الماهية، وبيَّن الكيفية والكمية، وناظر في الجوهر والعَرَض، ومَيَّز الصحة من المرض، وفك المُعَمَّى، وفصل بين الاسم والمسمَّى، وصرف وقسَّم، وعدل وقوّم، وصنّف الأسماء والأفعال، وبوَّب الظرف والحال، وبنى وأعرب، ونفي وتعجب، ووصل وقطع، وثني وجمع، وأظهر وأضمر، واستفهم وأخبر، وأهمل وقيد، وأرسل وأسند، وبحث ونظر وتصفح الأديان، ورجّح بين مذهبي ماني وغيلان، وأشار بذبح الجَعْد، وقتل بشار بن برد، وأنك لو شئتَ خرقت العادات، وخالفت المعهودات، فأَحَلْتَ البحار عذبة، وأعدت السِّلام رطبة، ونقلت غدًا فصار أمسا، وزدت في العناصر فكانت خمسا، وأنك المقول فيه: "كلّ الصيد في جوف الفرا" و:

لـــــيس علـــــى الله بمســـــتنكَرٍ أن يجمـــع العـــالم فـــي واحـــد

والمعنيّ بقول أبي تمام:

فلـــو صَـــوَّرْتَ نفســـك لـــم تزدْهـــا علـــى مـــا فيـــك مـــن كـــرم الطبـــاعِ

والمراد بقول أبى الطيب:

ذُكِـــر الأنـــامُ لنـــا فكـــان قصـــيدةً كنـــتَ البـــديعَ الفـــرد مـــن أبياتهـــا

فكدمت في غير مكْدم، واستسمنت ذا وَرَم، ونفخت في غير ضَرَم، ولم تجد لرمحٍ مهزًّا، ولا لشفرةٍ محزًّا، بل رضِيت من الغنيمة بالإياب، وتمنت الرجوع بخفي حنين لأني قلت:

لقد هان من بالتْ عليه الثعالبُ

وأنشدت:

علـى أنهـا الأيـام قـد صـرن كلهـا عجائـب حتـى لـيس فيهـا عجائـب

ونخرت وكفرت، وعبست وبسرت، وأبدأت وأعادت، وأبرقت وأرعدت. و:

هممت ولم أفعل، وكدتُ وليتنى

ولولا أن للجوار ذمة، وللضيافة حرمة، لكان الجواب في قَذَال الدُّمُستقِ. والنعل حاضرة إن عادت العقرب، والعقوبة ممكنة إن أصر المذنب. وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك، ملؤها حبيبها، حسنٌ فيها من تودّ، وكانت إنما حلّتك بحُلاك، ووسمتك بسيماك، ولم تُعِرْكَ شهادة، ولا تكلفت لك زيادة، بل صدقت سن بكرها فيما ذكرته عنكَ، ووضعتِ الهِناءَ مواضع النقبِ بما نسَبَتْهُ إليك، ولم تكن كاذبةً فيما أثنت به عليك، فالمُعَيْدِيّ تسمع به خير من أن تراه.

هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والعلاوة، مُفْرِط الحمق والغباوة، جافي الطبع، سيئ الإجابة والسمع، بغيض الهيئة، سخيف الذهاب والجَيْئَة، ظاهر الوسواس،

منتن الانفاس، كثير المعايب، مشهور المثالب، كلامُكَ تمتمة، وحديثُك غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة، ومشيُك هرولة، وغناك مسألة، ودِينُك زندقة، وعلمُك مخرقة.

مَسَـاوٍ لـو قُسِـمْنَ علـى الغـواني لمـــا أُمْهِـــرْنَ إلا بـــالطلاقِ

كيف رأيتَ لؤمك لكرمي كِفاء، وَضَعَتَكَ لشرفي وفاء؟ وأَنَّى جهلتَ أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطير إنما تقع على ألَّافها؟ وهلا علمتَ أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان، وقلت: الخبيث والطيب لا يستويان، وتمثلتَ:

أيهـــا المـــنكح الثريـــا ســـهيلا عمـــرك الله كيـــف يلتقيـــان؟

وذكرتَ أني عِلْقٌ لا يباع لمن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرض لا يصيبه إلا من أجاد؟ ما أحسبك إلا كنت قد تهيأت للتهنئة، وترشحت للترفئة. ولولا أن جَرْح العجماء جُبَار، للقيتَ من الكواعب ما لاقى يسار، فما هَمَّ إلا بدون ما هممتَ به، ولا تعرَّض إلا لأيسر ما تعرضت له. أين ادعاؤك رواية الأشعار، وتعاطيك حفظ السير والأخبار؟ أمَا ثاب إليك قول الشاعر:

بنـــو دارمٍ أكفـــاؤهم آل مِسْـــمَعٍ وتَعْقِـدُ فـــي أكفائهـــا الَحِبطـــاتُ؟

وهلا عَشّيْتَ ولم تغترّ؟ وما أمنك أنك تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة المتلمس، أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة بالجهني حين أتاه خاطبًا، فدهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل؟ ومتى كثر تلاقينا واتصل ترائينا فيدعوني إليك ما دعا ابنة الخُسّ إلى عبدها من طول السواد وقرب الوساد؟ وهل فقدت الأراقم فأنكح في جنب؟ وهل عَضَلَني همام بن مرة فأقول: زوج من عود خير من قعود! ولعمرى لو بلغتُ هذا المبلغ لارتفعتُ عن هذه الحِطّة، ولا رضيتُ بهذه الخطَّة. فالنار ولا العار، والمنيَّة ولا الدَّنِيّة، والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها.

فكيـف، وفـي أبنـاء قـومي مـنكح وفتيـان هـزان الطـوال الغرانقـة؟

وما كنتُ لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطي الثور بعد الجواد، فإنّما يتيمم من لم يجد ماء، ويرعى الهشيمَ من عدِمَ الجميم، ويركب الصعب من لا ذَلُول له. ولعلك إنما غرك من علمتَ صبوتي إليه، وشَهِدْتَ مساعفتي له، من أقمار العصر، وريحان المصر، الذين همُ الكواكب عُلُوّ همم، والرياضُ طيب مشمّ.

من تَلْقَ منهم تَقُلْ: لاقيتُ سيِّدَهم = مثل النجوم التي يسري بها الساري فحَنَّ قِدْحٌ ليس منها. ما أنت وَهُمْ؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالوشيظة في العظم بينهم؟ وإن كنت إنما بلغتَ قعر تابوتك، وتجافيت عن بعض قُوتك، وعطرت أردانك، وجررت هميانك، واختلْت في مشيتك، وحذفتَ فضول لحيتك، وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك، ورفعتَ خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا في الاعتداد منهم، فظننتَ عجزا، وأخطأت استك الحفرة. والله لو كساك مُحَرِّقٌ البُرْدَيْن، وحَلَّتْكَ ماريةُ بالقرطين، وقلدك عمرٌو الصمصامة، وحملك الحارث على النعامة، ما شككتُ فيك، ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك.

وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب، وجاريتهم في غاية الظرف والأدب، أليس تأوي إلى بيتٍ قَعِيدتُه لَكَاع، إذ كلهم عزب خالي الذراع؟ وأين من أنفرد به ممن لا غلب إلا على الأقل الأخسّ منه؟ وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة، والنفس المصروفة إليَّ واللذة الموقوفة عليّ وبين آخر قد نضب غديره ونزحت بيره، وذهب نشاطه ولم يبق إلا ضراطه؟ وهل يجتمع لي فيك إلا الحَشَف وسوء الكِيلَة، ويقترن عليَّ بك إلا الغدة والموت في بيت سلولية؟

تعـالى الله يـا سَـلْمُ بـنَ عمـرٍو أذلَّ الحـــرص أعنـــاق الرجـــال

ما كان أخلفك بأن تَقْدِر بذَرْعك، وتَرْبَع على ظَلْعك، ولا تكن بَرَاقِشَ الدالةَ على أهلها، وعنز السوء المستثيرة لحتفها، فما أراك إلا سَقَط العَشَاء بك على سِرْحان. وبِكَ لا بظبيٍ أَعْفَر. أعذرتُ إن أغنيتُ شَيًّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيًّا.

إن العصـــا قُرِعَـــتْ لـــذي الحِلْـــمِ والشـــيءُ تَحْقِـــرُه، وقـــد يَنْمِـــى

وإن بادرتَ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة، كنتَ قد اشتريت العافية لك بالعافية منك. وإن قلت: "جعجعة بلا طِحْن"، و"رُبَّ صلفٍ تحت الراعدة"، وأنشدت:

لا يُؤْيِسَـــنَّك مـــن مخـــدَّرةٍ قـــولٌ تُغَلِّظـــه وإنْ جَرَحَـــا

فعدتَ لما نُهِيتَ عنه، وراجعتَ ما استعفيتَ منه، بعثتُ من يزعجك إلى الخضراء دفعا، ويستحثك نحوها وَكْزًا وصفعا. فإذا صرت إليها عبث أكّاروها بك، وتسلَّط نواطيرها عليك، فمن قَرْعَةٍ معوجَّةٍ تُقَوَّم في قفاك، ومن فُجْلَةٍ منتنةٍ يرمى بها تحت خصاك، ذلك بما قدمت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك:

فمـــن جهلـــتْ نفسُـــه قـــدرَه رأى غيـــرُه منـــه مـــا لا يَـــرَى"[2]

***

والآن وبعد أن اطلعنا على "الرِّسالة الزيدونيَّة" نبدأ البحث: وأول كل شيء أودُّ أن أقفَ لدن تسمية رسالتنا هذه بـ"الهزليَّة" ومدى ما في هذه التسمية من دقة. وفي المعاجم: هزَل الشَّخصُ في الأمر: مزَح، هَذَى، وعكسه جَدَّ. وهزل في كلامه: مزح وتكلَّم بكلام غير معقول ولم يكن جادًّا. ويعرِّف دكتور شوقي ضيف الهزل، في كتابه: "الفكاهة في مصر"، قائلًا: "إذا بالغ الشُّخص في مغالطاته ولم يعتمد على (شخص) ثانٍ يُجْرِي عليه هذه المغالطات، بل استغرق هو نفسه فيها حتى خرج إلى لامنطقيَّة خالصة، كان ذلك هو الهزل بعينه، إذ نرى شخصًا يتكلَّم وكأنَّما ألغى عقله إلغاءً، فيسوق بدهيات في شكل معلومات خطيرة مثلًا أو يخلط في كلامه تخليط النائمين أو الغافلين". والذين كانوا يستمعون مثلي قبل عقود من السنين إلى "أبو لمعة الأصلي"، وهو يحكي للخواجة بيجو قصصًا لا تدخل العقل أبدًا بل لا يمكن تصوُّرها أصلًا، مصطنعًا نبرة جادة كل الجد، وغير عابئ برد فعل الخواجة بيجو، الذي يصيح مستنكرًا ويشدُّ شعره مما يسمع، بينما أبو لمعة ماضٍ في حكايته العجيبة التي لا يمكن أن تدور إلا في ذهن سكران مثلًا لا يدري ماذا يقول، أقول لمن كانوا يستمعون مثلي لأبي لمعة الأصلي إن هذا مثال للهزل أو لنوع منه.

ومن الهزل أيضًا ما تركه لنا ابن سودون[3] من شعر ونثر كقوله شعرًا:

عَجَبٌ عجبٌ، هذا عجبُ	**بَقَرَه حَمْرَا، ولها ذَنَبُ**
ولها في بزبزها لبنٌ	**يبدو للناس إذا حلبوا**
لا تغضبُ يومًا إن شُتِمَتْ	**والناس إذا شُتِموا غضِبوا**
لا بدّ لهذا من سبب	**حَزْرِي بَزْرِي: ماذا السببُ؟**
من أعجب ما في مصر يُرَى	**الكَرْم يُرَى فيه العنبُ**
والنخل يُرَى فيه بلحٌ	**قالوا: ويُرَى فيه رُطَبُ**
زهر الكتان مع البلسان	**هما لونان ولا كذبُ**

البـــــيض إذا جـــــاعوا أكلـــــوا والســـــمر إذا عطشـــــوا شـــــربوا
الناقـــــــة لا منقـــــــار لهـــــــا والـــــوزة لـــــيس لهـــــا قتـــــبُ[4]

ومن نثره الهازل قوله: "كنت وأنا صغير بليدًا لا أصيب في مقال، ولا أفهم ما يقال. فلما نزل بي المشيب زوجتْني أمي بامرأة كانت أبعد مني ذهنًا، إلا أنَّها أكبر مني سنًّا. وما مضت مدة طويلة حتى ولدتْ والتمستْ مني طعامًا حارًّا. فتناولتُ الصحفة مكشوفة. ورجعت إلى المنزل آخذ المكبَّة، والمكبة هي غطاء الصحفة، فنسيت الصحفة. فلما كنت في السوق تذكرت ذلك فرجعت وأخذت الصحفة، ونسيت المكبة. وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى. ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس، فقلت: لا أشتري لها في هذه الليلة شيئًا وأدعها تموت جوعًا. ثم رجعت إليها وهي تئن، وإذا ولدها يستغيث جوعًا. فتفكرت كيف أربيه، وتحيرت في ذلك. ثم خطر ببالي أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب، ثم يأتي ويقذفه في فم ابنه، وتكون حياته بذلك. فقلت: لا والله لا أكون أعجز من الحَمَام، ولا أدع ولدي يذوق كأس الحِمَام. ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز فجعلته في فمي، ونفخته في فمه فرادى وأزواجًا، أفواجًا أفواجًا، حتى امتلأ جوفه وصار فمه لا يسع شيئًا، وصار الجوز واللوز يتناثران من أشداقه حتى امتلأ، فسررت بذلك وقلت: لعله قد استراح. ثم نظرت إليه، وإذا به هو قد مات. فحسدته على ذلك وقلت: يا بني، إنه قد انحط سعد أمك، وسعدك قد ارتفع، لأنها ماتت جوعًا، وأنت مُتَّ من الشبع! وتركتهما ميتين ومضيت آتيهما بالكفن والحَنُوط. ولما رجعتُ لم أعرف طريق المنزل. وها أنا في طلبه إلى يومنا هذا"[5].

والآن إذا ما نظرنا إلى "الرِّسالة الهزليَّة" لابن زيدون لا نجد فيها شيئًا من الهزل، بل كلها سخرية وتهكم دفعته إليهما غيرته من محاولة ابن عبدوس الفوز بقلب حبيبته ولَّادة، فصوره بالصورة التي عرضتها الرِّسالة المذكورة والتي تَغَيَّا من ورائها عاشقُنا الغيورُ تحقيرَ غريمه وتحطيمَه فلا تقوم له قائمة بعدها. وهذا بغض النظر هل نجح في ذلك كما ينبغي

أم لا، فذلك موضوع آخر سوف نأتي له في حينه. ومن هنا قد تكون تسميتها بـ"الرِّسالة التهكُّميَّة" أقرب إلى الواقع والصواب. فالرِّسالة تهكُّم وسخر لا هزل ولعب فارغ، ولا يجعل المؤلفُ نفسه فيها هدفًا للضحك، بل خصمه.

وثاني ملاحظة على الرِّسالة أنها تبدأ على الفور بعبارة "أما بعد" مع أنه لم يسبقها كلام كان قبلها حتى يقال: "أما بعد"، إذ ليس بعدٌ إلا وقد سبقه قبلٌ. بل إن "أمّا" أو "أما... وأما..." لا تأتي في أول النص؛ إذ لا بدَّ أن يكون هناك كلام سابق ظاهر أو مقدر يعرفه الجانبان: المتكلم والسامع، أو الكاتب والقارئ. أما أن يبدأ الكلام مباشرة بـ"أما/ أما... وأما..." دون أن يكون هناك شيء يشار إليه بهاتين الكلمتين فهو شيء يلفت النظر.

وقد قرأت مثلًا أن الحلاج بعث برسالة إلى أحد تلامذته تبتدئ مباشرة بـ"أما بعد"[6]، كما أن عطاء بن السائب بعث برسالة إلى عمر ينبئه فيها أنه عثر على كنز من كنوز كسرى في أحد معابد بلاد الفرس ويريد أن يرسله إليه، فألفيت الرِّسالة المذكورة تبتدئ مباشرة بـ"أما بعد" حسب الرواية التي أوردها الطرطوشي مؤلف "سراج الملوك"[7]. وإذا صح أن "الرِّسالة الهزليَّة" قد وصلتنا كاملة دون حذف المقدمة التي تحدد المرسل والمرسل إليه على الأقل كقولهم: "من فلان إلى فلان" مثلًا، فلربما كان ابتداؤها بـ"أما بعد" إيماء إلى أن ولادة لا تستطيع الصبر على أن تكيل لابن عبدوس كلامها الساخر القارص، فهي تدخل في موضوعها مباشرة دون تمهيد مثلما نرى أحيانًا في مباريات المصارعة الحرة؛ إذ يكون أحد طرفي المصارعة قد صعد إلى الحلبة ودخل في حوار مع الحكم مثلًا أو الجمهور منتظرًا خصمه، ثم يأتي الطرف الآخر فيصعد في سرعة وخفة إلى الحلبة وينهال على خصمه دون انتظار إشارة الحكم، معتمدًا على المباغتة كعامل يمكن أن يكفل له الغلبة. ونحن، حين نقول: ولَّادة، إنما نجري على ظاهر الأمور، وإلا فالكل يعرف أنها ليست كاتبة الرِّسالة بل ابن زيدون. فالكلام إذن عن ولَّادة، والقصد إلى ابن زيدون.

وبالنسبة إلى أول من استعمل في كلامه: "أما بعد" هناك مَن يقول إنه داود عليه السلام، ومَن يقول إنه قُسّ بن ساعدة. كتب ابن نباتة في "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون": "أما: حرف يقتضي مضيَّ أحد الشيئين، ويُبْتَدَأ به الكلام، وبعد: ههنا تستعمل في الترتيب الصناعي. وتقدير "أما بعد: مهما يكن بعد"، وهي كلمة يبتدئ بها كثير من الخطباء والكتَّاب كلامهم في خطبهم المحبَّرة، ورسائلهم المحرَّرة كأنهم يستعدون بها الإصغاء لما يقولون، ولذلك فخر بها سَحْبَان فقال:

وقد علمتْ قيس بن عَيْلانَ أنني إذا قلتُ: "أما بعد" أنى خطيبها

وكثيرًا ما تأتي عَقِيبَ قول "الحمد لله"، وتسمى هنالك: فصل الخطاب لأنَّها فصلت بين الكلام الأول والتالي، وتأتي عقيب البسملة، وتأتي ابتداء كأنَّها عقيب الفكر والروية. وأول من قالها داود عليه السلام، وقيل إنها فصل الخطاب المذكور في الكتاب العزيز. وقيل: أول من قالها قُسّ بن ساعدة. والأول أصح، وإنَّما قُس أول من خطب بها في العرب، وكتبها أول الكتب على ما ذكر"[8].

هذا ما قاله ابن نُباتة في "سرح العيون": فأما داود فمزاميره بين أيدينا حسبما أوردها العهد القديم من الكتاب المقدس، وليس فيها على الإطلاق تلك العبارة، وليس معنا الآن من كلامه أو الكلام المنسوب إليه شيء آخر غير المزامير. بل إن العهد القديم كله يخلو من "أما بعد" التي نحن بصددها، وليس فيه سوى "وأما بعد موت الكاهن فيحل كذا وكذا"، وهي شيء مختلِف تمامًا عما نحن فيه. وحتى هذه العبارة الأخيرة لم ترد في الكتاب المقدس سوى هذه المرة، فكانت بيضة الديك. ولنفترض أن داود هو أول من قالها فبأية لغة يا ترى؟ ليست اللُّغة العربيَّة بطبيعة الحال. فكيف انتقلت إلى العرب؟ بالترجمة؟ فأين ذلك؟

كذلك رأينا التوضيح الذي يقول إن "أما بعد" هي المقصودة من قوله تعالى في سورة "ص" عن عبده ونبيه داود: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}. فـ"فصل الخطاب"، حسب

هذا التوضيح هو عبارة "أما بعد". لكن هل يمتن الله سبحانه على عبد من عباده بأنَّه علَّمه أن يقول في كلامه وخطبه: "أما بعد"، ويُنْزِل في ذلك قرآنًا؟ الواقع أن "فصل الخطاب" أقرب إلى أن يكون هو براعة القاضي أو الحاكم في الفصل بما يزيلُ الخلافَ بين المتخاصمين أو المتقاضيين اللذين لجآ إليه لتسوية خلافهما ويضع حدًّا له. أي أن "فصل الخطاب" هو الرأي أو الحكم الذي يحسم المسألةَ ولا يعود بعده مقال لقائل.

وأما إن أصر أصحابُ الرأي الأول على قولهم إن "فصل الخطاب" في الآية الكريمة هو عبارة "أما بعد"، وإن الله إنما امتنَّ على عبده داود بها، فماذا يا ترى ينبغي إذن أن نقول في حق التلوينات البديعة التي أدخله زكي مبارك على عبارة "أما بعد" كقوله مثلًا: "ثم أما بعد...، أما بعد وقد تعبنا من أما بعد...، أما بعد وقد أشقتني أما بعد...، أما بعد وقد أشقتني وستشقيني أما بعد...، أما بعد فماذا أريد أن أقول؟، أما بعد فأين أنا مما كنتُ أريد؟"؟ كما أنه كان يورد هذه العبارة عادة في نهاية ما يكتب لا في أوائله. يمينا ليكونن هذا من زكي مبارك شيئًا ليس له مثيل ولا يستطيعه سواه، ويحق له أن نفاخر به بين الكتَّاب والخطباء والأدباء والشعراء.

ولقد أذكر أني سمعت في شبابي بعض خطباء المساجد الهواة يقولون في أول خطبة الجمعة بعد التحميد والصلاة على النبي وما إليه: "أما قبل". وربما كان ذلك على سبيل الإدهاش والاتجاه مُتَّجَهًا غير متوقَّع ومخالفًا للاتجاه السائد حتى يروجوا عند الجماهير ويقال عنهم إنهم مبتكرون، أو ربما كان المقصود أنهم قبل أن يدخلوا في موضوع الخطبة يودون أن يشيروا إلى كذا وكذا.

وهنا أجدني حزينًا لابن زيدون، فقد صاغ هذه الرِّسالة على لسان ولَّادة، وولَّادة لم تكن زوجته بل حبيبته، فكان ينبغي أن يكون حذرًا فيضع في اعتباره أنهما يمكن أن يتجافيا وينفصلا كما يحدث في عالم الغرام، وهو ما حدث، بل لقد ركنت الحبيبة إلى الخصم اللدود، وأظهرت ضعف الأساس الذي استند إليه الوزير العاشق، فها هي ذي تتركه

وتذهب إلى عدوه اللدود وتلوذ به، فيرى النَّاس أن ابنَ زيدون كان واهمًا مخدوعًا فيها وأنه استنام إلى الدهر، والدهر قلّب، فلم يعمل حسابًا لهذا التقلب، وصارت تهب عليه الريح من كل اتجاه. لقد كوم ابن زيدون على رأس ابن عبدوس كلَّ عيوب البشر في رسالته، التي يفترض أنها من إنشاء ولَّادة، وها هي ذي ولَّادة تنقلب عليه وتفضِّل ابنَ عبدوس، فيكون هذا الانقلاب مؤلمًا أشد الألم لابن زيدون.

ويا ليت الأمرَ توقف هنا، فقد ترك ابن زيدون لنفسه العِنَان وانطلق دون حسيب أو رقيب فلم يكتفِ بالاطمئنان إلى الدهر وقَلْب حبيبته، بل وضع على لسان ولَّادة في رسالتها المزعومة كلامًا طويلًا وغاليًا في مدحه، فلمَّا تقلبت الأحوال وهجرته ولَّادة وانحازت إلى ابن عبدوس كانت الرِّسالة سببًا في تعجب العارفين بالأمر منه ومن مبالغته الشديدة في التمدح بنفسه وتحقير ابن عبدوس، إذ ها هي ذي الحبيبة الموثوقة قد خيبت ظنه وانتقلت إلى الناحية الأخرى، فصار الشاعر الكبير يتخبط كالدجاجة المذبوحة، وهي ولا هي هنا. يا لقسوة الزمان!

تقول الرِّسالةُ على لسان الحبيبة: "كيف رأيتَ لؤمك لكرمي كِفاء، وَضَعَتَكَ لشرفي وفاء؟ وأَنَّى جهلتَ أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطير إنما تقع على ألَّافها؟ وهلا علمتَ أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان، وقلت: الخبيث والطيب لا يستويان، وتمثلتَ:

أيهـــا المـــنكح الثريـــا ســـهيلا عمـــرك الله كيـــف يلتقيـــان؟

وذكرتَ أني عِلْقٌ لا يباع لمن زاد، وطائرٌ لا يصيده مَن أراد، وغرض لا يصيبه إلا مَن أجاد؟ ما أحسبك إلا كنت قد تهيأت للتهنئة، وترشحت للترفئة. ولولا أن جَرْح العجماء جُبَار، للقيتَ من الكواعب ما لاقى يسار، فما هَمَّ إلا بدون ما هممتَ به، ولا تعرَّض إلا لأيسر ما تعرضت له. أين ادعاؤك رواية الأشعار، وتعاطيك حفظ السير والأخبار؟ أمَا ثاب إليك قول الشاعر:

بنـــو دارمٍ أكفـــاؤهم آل مِسْـــمَعٍ وتَعْقِـدُ فـــي أكفائهـــا الَحِبطـــاتُ؟

وهلا عَشّيْتَ ولم تغترّ؟ وما أمنك أنك تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة المتلمس أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة بالجهني حين أتاه خاطبًا، فدهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل؟ ومتى كثر تلاقينا واتصل ترائينا فيدعوني إليك ما دعا ابنة الخُسّ إلى عبدها من طول السواد وقرب الوساد؟ وهل فقدت الأراقم فأنكح في جنب؟ وهل عَضَلَني همام بن مرة فأقول: زوج من عود خير من قعود! ولعمري لو بلغتُ هذا المبلغ لارتفعتُ عن هذه الحِطّة، ولا رضيتُ بهذه الخطَّة. فالنار ولا العار، والمنيَّة ولا الدَّنِيّة، والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها.

فكيـف، وفـي أبنـاء قـومي مـنكح وفتيـان هـزان الطـوال الغرانقـة؟

وما كنتُ لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطي الثور بعد الجواد، فإنَّما يتيمم مَن لم يجد ماء، ويرعى الهشيمَ من عدِمَ الجميم، ويركب الصعب مَن لا ذَلُول له. ولعلك إنَّما غرَّك من علمتَ صبوتي إليه، وشَهِدْتَ مساعفتي له، من أقمار العصر، وريحان المصر، الذين همُ الكواكب عُلُوّ همم، والرياضُ طيب مشمّ.

من تَلْقَ منهم تَقُلْ: لاقيتُ سيّدَهم = مثل النجوم التي يسري بها الساري فحَنَّ قِدْحٌ ليس منها. ما أنت وَهُمْ؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالوشيظة في العظم بينهم؟ وإن كنت إنما بلغتَ قعر تابوتك، وتجافيت عن بعض قُوتك، وعطرت أردانك، وجررت هميانك، واختلْت في مشيتك، وحذفتَ فضول لحيتك، وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك، ورفعتَ خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعًا في الاعتداد منهم، فظننتَ عجزًا، وأخطأت اسْتُك الحفرةَ. والله لو كساك مُحَرِّقٌ البُرْدَيْن، وحَلَّتْكَ ماريةُ بالقرطين، وقلدك عمرو الصمصامة، وحملك الحارث على النعامة، ما شككتُ فيك، ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك.

وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب، وجاريتهم في غاية الظرف والأدب، أليس تأوى إلى بيتٍ قَعِيدتُه لَكَاع، إذ كلهم عزب خالي الذراع؟ وأين مَن أنفرد به ممن لا غلب إلا على الأقل الأخسّ منه؟ وكم بين من يعتمدنى بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة، والنفس المصروفة إليَّ واللذة الموقوفة عليّ وبين آخر قد نضب غديره ونزحت بيره، وذهب نشاطه ولم يبقَ إلا ضراطه؟ وهل يجتمع لي فيك إلا الحَشَف وسوء الكِيلَة، ويقترن عليَّ بك إلا الغدة والموت في بيت سلولية؟

تعـالى الله يـا سَـلْمُ بـنَ عمـرٍو أذلَّ الحـــرص أعنـــاق الرجـــال

ما كان أخلفك بأن تَقْدِر بذَرْعك، وتَرْبَع على ظَلْعك، ولا تكن بَرَاقِشَ الدالةَ على أهلها، وعنز السوء المستثيرة لحتفها، فما أراك إلا سَقَط العَشَاء بك على سِرْحان. وبِكَ لا بظبيٍ أَعْفَر. أعذرتُ إن أغنيتُ شَيًّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيًّا.

إن العصـــا قُرِعَـــتْ لـــذى الحِلْـــمِ والشـــيءُ تحقـــره، وقـــد يَنْمِـــي

وإن بادرتَ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة، كنتَ قد اشتريت العافية لك بالعافية منك. وإن قلت: "جعجعة بلا طِحْن"، و"رُبَّ صلفٍ تحت الراعدة"، وأنشدت:

لا يُؤْيِسَـــنَّك مـــن مخـــدَّرةٍ قـــولٌ تُغَلِّظـــه وإنْ جَرَحَـــا

فعدتَ لما نُهِيتَ عنه، وراجعتَ ما استعفيتَ منه، بعثتُ من يزعجك إلى الخضراء دفعًا، ويستحثك نحوها وَكْزًا وصفعًا. فإذا صرت إليها عبث أكّاروها بك، وتسلَّط نواطيرها عليك، فمن قَرْعَةٍ معوجَّةٍ تُقَوَّم في قفاك، ومن فُجْلَةٍ منتنةٍ يرمى بها تحت خصاك، ذلك بما قدمت يداك، لتذوق وبالَ أمرك، وترى ميزان قدرك:

فمـــن جهلـــتْ نفسُـــه قـــدرَه رأى غيـــرُه منـــه مـــا لا يَـــرى"[9]

ومن الواضح أن ابن زيدون حين ضخَّم من شأن نفسه، وحقَّر من قدر خصمه لم يتنبه إلى أن تصاريف الحياة والقلوب ليست في يديه، وأنَّه من ثَم لا يضمن ثبات قلب

ولَّادة ومشاعرها نحوه، ولا أدري كيف كان ذلك منه، وهو الذي جرَّب عض ضروس الدهر وتقلُّبَ الأيام ولم تستقمْ له أموره كما يحب، بل عانى وتألَّم واستعطف وتظلَّم؟ ثمَّ كيف لم يتنبه إلى شخصية حبيبته وأنَّها يمكن أن تبتعد عنه لسبب أو لآخر؟ لقد تكلَّم عن شم أقحوان الثغور وقطف رمان الصدور على مشارف قرطبة حين كان الظلام والسُّجُوّ والانفراد يرخي عليهما سُدُولَه، لكن ما كان ينبغي أن ينسيه ذلك كله طبيعة الزمن والحياة. كما أنَّ ولَّادة فيما بلغنا من أخبارها لم تكن بالتي يُطْمَأَنّ إلى قلبها تمام الاطمئنان. إني أقول هذا تألمًا لابن زيدون، إذ ما كنت أحب له أن ينتصر عليه ابنُ عبدوس ويختطف منه ولَّادة، بل كنت أتمنى لو تزوجها ونعما بالعيش معًا.

لكن هل كان شاعرنا الهمام يمكنه نظمُ نونيته الفريدة التي أحسب أنَّه لا يوجد بسهولةٍ لها نظيرٌ في أشعار العالم فنًا أو خيالا أو أحاسيس أو ألمًا عبقريًّا حتى إنني، في محاضرة لي في ثمانينيات القرن الماضي، وكانت كبرى أولادي لا تزال في بدايات المرحلة الابتدائيَّة صرحت بأنه لو تقدم لها عندما تكبر خاطبٌ قد نظم مثل تلك القصيدة لأعطيتها إياه دون أن أطالبه بأي شيء. إن مثل تلك القصيدة لا يمكن أن تستوي وتنضج إلا على نيران الألم والعذاب، لا على أطباق طعام الزواج والأطياب. وإلا فأين غزل ابن زيدون في زوجته، بله أن يكون الغزل في مثل روعة تلك القصيدة؟! لقد كانت ردًّا مخرسًا لمَن يعيب البديعَ العربيَّ؛ إذ كل شيء في محسناتها البلاغيَّة هو في نفاسة اللآلئ والدرر والألماس والياقوت على رأس وجيد وصدر فتاة تامة الحسن والجمال مدللة منعمة لا تبالي بشيء، تعشو العيون إليها لكن لا يقدر أحد ممَن ينظرون نحوها على تمنيها حبيبةً له لأنها إنَّما تحلق في مدار سامٍ بعيد عن مدارات البشر.

لقد نال ابن زيدون من ابن عبدوس في الرِّسالة كلَّ منال وافتخر بنفسه، وضاءل من حَسَب خصمه ونسبه وعقله ورسمه. لكن ذلك كله لم يغنِ عنه شيئًا، وطارت منه العصفورةُ إلى ذلك الخصم. عجيب أمر ذلك الزمن.

والغريب أنَّها كانت تسخر قبل ذلك من ابن عبدوس ذاته حين كان يتطلع إلى أن تكون له كما مر بنا حين مرت به أمام بيته وأمامه بركة ماء المطر بما تجمع فيها من أقذار. ولا أظنهما بعدما صارت إليه وتخلَّت عن ابن زيدون إلا كانا ينالان منه ويسخران مما كتبه على لسانها في تلك الرِّسالة. هكذا أتصور الأمر، فهذه طبيعة الأشياء. وهذا هو ما يؤلمني. إننى أنتقد ابنَ زيدون لا نفورًا منه، بل حبًّا له ويقينًا مني أنه كان الأجدر بهذه الفتاة الجميلة الأنيقة المدللة المعتزة بنفسها، مع معرفتي أنه لو كان تزوجها ما ترك لنا تلك النونيَّة العصماء وأشعاره الأُخَر العبقريَّة التي وصف فيها آلامه وحرمانه من هذه الجنة الفيحاء، ولكانت أرهقته بغيرتها ومطالبها التي لن تنتهي، أو لكان مع الأيام وكثرة الاحتكاكات اليوميَّة قد خف تعلقه بها وتحول الحب المضطرم المزعزع عشرة هادئة لا نيران فيها ولا عواصف، بل انشغال بتربية الأولاد.

كذلك كنت أودُّ لو برز ابن زيدون بنفسه لابن عبدوس وخاطبه في الرِّسالة وجهًا لوجه غير متخذٍ من ولَّادة درِيئة، وبخاصة أن تلك الحيلة لا يمكن أن تكون قد جازت على ابن عبدوس أو مَن قرأوها، فليست ولَّادة بكاتبة رسائل ولا مؤلفة حكايات أو جدالات، وأكثر ما يمكن أن يصدر عنها تلك التعليقات الخفيفة الظل الساخرة كالتي جبهت بها ابن عبدوس أيام نفورها منه وقبل تحولها إليه، فضلًا عن بعض الأبيات القليلة. ثم إن أسلوب الرِّسالة ومضمونها ليسا مما تهتمُّ به النساء. وأنا هنا أيضا آخذ على ابن زيدون هذا لا ضيقًا به، بل حرصًا على ألا يتهمه أحد بالعجز عن مواجهة الخصوم، وخصوصًا أن ابن عبدوس ليس أديبًا ولا شاعرًا، بل هو مجرد وزير، فليس لاستتار شاعرنا بولَّادة أي معنى ولا سبب مقبول.

ثمَّ إن في الرِّسالة ألفاظًا لا تليقُ بصدورها عن ولَّادة الفتاة المترفة الجميلة الأنيقة بنت الخليفة مهما يكن رأي المؤرخين في أبيها وحكمه ومهما قالت الروايات عن لامبالاتها بشيء في كلامها وتصرفاتها، ومن ثَم كان على ابن زيدون تحاشيها حتى لا يسيء إليها

وهي الحبيبة الغالية: ففي الرِّسالة نراها تسمي المرأة التي أرسلها إليها ابن عبدوس بـ"القوادة". وهي كلمة كان ينبغي أن تتنزه الرِّسالة عنها، فالقوادة لا تقصد بقِوَادتها النساء الشريفات العفيفات، بل اللاتي يسهل اصطيادهن أو يُتَوَقَّع أن يكون اصطيادهن ميسورًا. وولَّادة ليست من ذلك الصنف مهما كان من تحررها وسفورها وبروزها للرجال في مجلسها الأدبي وقدرتها على مقارعة من تريد إفحامَه. ومن ذلك ما جاء في الرِّسالة من رمي الأكارين برءوس الفجل في خصيتي ابن عبدوس. وهذا كلام لا تقوله امرأة محترمة. ومع هذا نقرؤه في الرِّسالة، التي من المفروض أن مؤلفتها هي ولَّادة. ونرى الرِّسالة أيضًا، في تصويرها خيبة أمل ابن عبدوس في جذبها إليه من خلال إرسال امرأة تتوسط له عندها علها تستجيب له، قد استعملت عبارة "أخطأتِ استُك الحفرة". والإشارة فيها إلى عملية التبرز علاوة على كلمة "است". وتتكلم عن الضراط الذي لم يبقَ لمثله سواه. وهذا كله لا يليق بل يصدم الأذواق. فكيف عرّض ابن زيدون حبيبته لهذه البذاءات؟ بل لو أنه جاهر بكتابة الرِّسالة باسمه هو لما كان هذا منه مقبولًا. لقد كان حريًّا به أن يرتفع بحبيبته عن مثل تلك السياقات. وولَّادة ليست راقصة مبتذلة أو امرأة من عُرْض الشارع، فكانت تحتاج إلى صيان وإكرام بإبعادها تمامًا عن هذا الميدان مهما كانت جريئة. وبالمثل لا أظن ولَّادة يمكن أن يخطر لها الاستشهاد بالمثل القائل: "تجوع الحرةُ ولا تأكل بثدييها" لتيئيس المرأة التي بعثها ابن عبدوس لتتوسط له لديها، فهذا لا تقوله امرأة شريفة عن نفسها أبدًا. إن كلمة الثديين كفيلة بتنفير أية امرأة تعتز بذاتها من نسبتها لنفسها. فما بالنا باستعمالها في سياق السعي لإحراز الطعام وإسكات عصافير البطن، وخصوصًا إذا كانت المستشهدة هي ولَّادة ربيبة القصور التي لا تعرف جوعًا ولا عطشًا ولا تشردًا في الشوارع والطرقات، بل تعيش عيشة الترف ويترامى عند قدمي فتنتها وبهائها كبار الرجال؟

ومما يؤخذ على الرِّسالة أيضًا احتواؤها على علوم ومصطلحات وأمثال وشعر وفلسفة وأسماء علماء وأطباء وصيادلة وقادة وزعماء ورجال حرب وغير ذلك مما لا يمكن أن

تكون ولَّادة مهتمة به أو تعرفه بوضوح أصلًا، كالهيولي والماهية والجوهر والعرض والإرسال والإسناد والاسم والمسمى والنَّطِف ودارا وماني وغيلان والضحاك وأرسطو وأفلاطون وهرمس وبلينوس وبقراط وشيرين وعروة بن جعفر والأحنف وزيد بن مهلهل وعامر بن مالك وقيس بن زهير وبنى دارم وآل مسمع وعقيل بن علفة وهمام بن مرة وابنة الخس ومحرِّق ومارية والدمستق ودارا.

فهل يمكنك أن تتخيل ولَّادة وقد حبست نفسها في غرفتها لا أدري كم من الزمن وحبرت هذه الرِّسالة الطويلة وطافت بعدد من ثقافات العالم واستدعت منها رموزها وإنجازاتهم ومكانتهم بين قومهم واقتبست الأمثال والأشعار والعبارات الشائعة لتشتم من خلال ذلك ابن عبدوس؟ لقد تحدث عمر الدسوقي، في مقدمة ديوان ابن زيدون ورسائله، عن الجهد الهائل المرهق الذي آد ظهر علي عبد العظيم محقق ذلك الديوان وتلك الرسائل في رد التضمينات التي استعان بها في نصوصه إلى مصادرها حديث المتعجب من صبر المحقق الفريد على الرجوع إلى مئات الكتب وتفتيشها حتى يعرف من أين أتى ابن زيدون بهذه الاقتباسات! كذلك لا يصح أن ننسى أن ابن نباتة شارح الرِّسالة التي بين أيدينا قد شرحها في صفحات تجاوزت الأربعمائة بكثير. فضع في ذهنك أيها القارئ هذا وأنت ترى إلحاحي على أن كتابة مثل رسالتنا لا يمكن أن يقتنع أحد بأن صاحبتها ولَّادة بنت المستكفي! كما أن الأسلوب واحد في كل رسائل ابن زيدون بما في ذلك "الرِّسالة التهكمية" التي نحن بصددها هنا.

كذلك يفد على خاطري السؤال التالي: هل قضت ولَّادة مع المرأة الوسيطة كل ذلك الوقت، وكلما ذكرت شخصًا ورفعت فوقه ابن عبدوس انبرت ولَّادة لترد عليها ما تقول بالحجة والمنطق والتهكم؟ يا ألله! كم كانت ولَّادة صبورة! ولكن الشخص الكاره لشخص آخر، وبخاصة كراهية ولَّادة لابن عبدوس في ذلك الوقت، لا يسعه سماع كلام "القوادة" المسبب للصداع والمثير للغثيان ولو للحظة، بل يحسم الأمر منذ بدايته فيقرر أنه لا

يطيق أن يسمع عن هذا الموضوع أو ذلك الشخص شيئًا على الإطلاق، وبذلك ينتهي الأمر قبل أن يبدأ. وبنفس المنوال هل يعقل أن المرأة الوسيطة قد مدحت ابن عبدوس بكل تلك الشمائل العظيمة في ميادين الزعامة والوسامة والفصاحة والحكمة والفلسفة والطب والصيدلة والغناء والحرب والفُتيا والأدب واللُّغة والحديث ومقارنة الأديان والمذاهب... إلخ؟ لو اجتزأت بالإشارة إلى غناه وماله ومنصبه وحبه لكان فيه الكفاية، أما هذا كله فأين ذلك الإنسان الذي يجمعه في نفسه كتلة واحدة؟ إن الرِّسالة تبدو وكأنها تكديس لكل الصفات المرذولة على شخصية ابن عبدوس تكديسًا غير فني، ولا أظن ابن عبدوس كان يتطلع إلى أن يكون جالينوس أو جابر بن حيان أو أفلاطون أو أرسطو أو السليك بن السلكة أو ملاعب الأسنة، دَعْكَ من أنه كان يفكر في ذلك أصلا... إلخ.

وثَمَّ ملاحظة أخرى هنا هي أن بعض الشمائل التي أسندتْها ولَّادة (مجازًا طبعًا، فالكاتب هو ابن زيدون كما نعرف كلنا) إلى ابن عبدوس على سبيل السَّخَر والشماتة تتعارض مع بعضها الآخر. لقد قالت في الرِّسالة: "وكليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك، وجساسًا إنما قتله بأنفتك، ومهلهلًا إنما طلب ثأره بهمتك" مع أن جساسًا قتل كليبًا، ومهلهلا قتل جساسًا بسبب كليب، وفي هذا تناقض أبلق شديد البَلَق. ومن هذا التناقض أيضًا استحضار اسم السُّلَيْك بن السُّلَكَة، وهو قاطع طريق وسارق نوق، مع أبقراط والنظام وأرسطو، والسخرية من ابن عبدوس بالقول بأنهم جميعًا أخذوا ما يتميزون به في مجال حياتهم منه. فكيف يكون ذلك؟

ثم متى كانت النساء في ذلك الوقت يكتبن رسائل أدبيَّة، بَلْهَ أن تكون بهذا الطول؟ إن مثل تلك الرِّسالة تحتاج إلى قلم كقلم عبد الحميد الكاتب لا إلى قلم فتاة مترفة مدللة فاتنة يتهافت عليها المشاهير. لقد سبق أن قلت إن ولَّادة ليس لها سوى بعض الأبيات الشعرية وبعض الردود الشفوية التهكمية. فمن أين أتت بتلك القدرة على تحبير مثل هذه الرِّسالة؟ لقد رأيناها وهي تتهكم على ابن عبدوس حين مرت به، وكان جالسًا أمام داره

وحوله الأتباع وقد انتفخ مزهوًّا بملابسه ومنصبه، فقالت له ساخرة وهي تشير إلى مياه المطر وما اختلطت به من طين وأقذار:

أنـــت الخصـــيب، وهـــذه مصـــر فتـــــدفَّقا، فكلاكمـــــا بحـــــرُ

فأفحمته، بل أخرسته بهذه الكلمات التي لا تشغل أكثر من نصف سطر. وحين قلبت ظهر المجن لابن زيدون لم تقل له في كل مرة قصدت هجوه سوى بيتين ضمنتهما كل الإهانة التي تريدها، مثل قولها تخاطبه:

ولُقِّبـتَ: المسـدَّس، وهـو نعـتٌ تُفارقـــك الحيـــاةُ ولا يفـــارِقْ

فَلُـــــــوطِيٌّ ومـــــــأبونٌ وزانٍ ودَيُّـــوثٌ وقرنـــانٌ وســـارقْ[10]

فإذا انتقلنا إلى أسلوب الرِّسالة ألفيناه أسلوبَ كاتب مضرَّس في ميدان الكتابة ومعاناة الزينات البديعيَّة من ترادفات وأسجاع وجناسات وتوازنات وتضمين أمثال وأشعار وحكم، وإن كانت هنا للأسف ميتة على العكس منها في النونية؛ حيث ارتفعت إلى أعلى سمت يمكن أن يصلَ إليه شعر عاطفي في أي لسان. وليس لولَّادة صلة بأي شيء من تلك السمات الأسلوبية التي روعيت في الرِّسالة. ولا أظن أحدًا ممن وصلتهم الرِّسالة في حينها قد ظن – ولو للحظة واحدة – أنها من وضع ولَّادة. أي أن الستار الفني الذي وقف خلفه ابن زيدون كان ستارًا زجاجيًّا في منتهى الشفافية، فلم يأتِ بالأثر المطلوب.

ومن الناحية الأدبيَّة لا أجد للرسالة أثرًا ممتعًا في نفسي؛ إذ تخلو من الصور والمناظر وتفتقر إلى الخيال وتقوم على تكديس الأمثال والأبيات الشعريَّة والعبارات الشائعة وميادين العلم وأسماء الرجال على اختلاف أوطانهم ومجالات عملهم بعضها بجوار بعض مع انتهاج الترادف على طول الرِّسالة وعرضها بدون داعٍ وقيام المقارنات بين الأسماء الكبيرة وبين ابن عبدوس على وتيرة واحدة تتلخص في أن كلًّا من أصحاب تلك الأسماء إنما أخذ تفوقه وعبقريته من ذلك الخصم اللدود. من هنا لست أشارك مَن أطرى هذه الرِّسالة ووضعها مكانا عليًّا لا أراها تستحقه بحال. أقول هذا أنا المفتون بشعر

ابن زيدون وعلى وجه خاص بنونيته الفريدة البديعة عديمة النظير، والمتعاطف معه بقوة في قصة عشقه لولَّادة ووقوفي بجانبه في مواجهتها، تلك الفتاة التي طال بها العمر وطعنت في السن ولم تتزوج قط رغم وقوع الكبار في هوى حسنها والافتتان بسحره، والتي حيرتنا معها لا حيرها الله، فكل شيء فداء للجمال والدلال.

وبالمناسبة فرسالة ابن زيدون إنما تتكون من عدد ضئيل جدًّا من الجمل الطويلة التي يرجع سرُّ طولها إلى اعتمادها العطف طول الوقت في سلاسل متصلة ممتدة: عطف اسم على أسماء، أو عطف مصدر مؤول بالصريح في الغالب على مصادر مثله. وبالمناسبة أيضًا لا تعدُّ الرِّسالة عملًا عابرًا للأجناس الأدبية كما ردد بعضهم مرة في حضوري؛ إذ العمل العابر للأجناس إنما يقوم على أن كل ما يضمه من تلك الأجناس هو من تأليف صاحبه لا اقتباسات اقتبسها من غيره. أما في "الرِّسالة التهكمية" لابن زيدون فكلُّ ما فيها من أمثال وأشعار وعبارات شائعة ذائعة هو لغيره أخذه وضمَّنه رسالته. إنها رسالة هجائية تحتوي على أشياء لفتت نظر صاحبها من كلام غيره فاستعان بها. وهذا كل ما هنالك. ويا ليته استعان بها في حيوية وتوثب، بل استعان بتكديسها بعضها مع بعض. ولا ننسى أن ابن زيدون كشاعر وأديب مفتقر إلى روح الفكاهة. فليس فيما كتبه من نثر أو شعر ما ينبئ أو حتى يشي بوجود هذه الروح لديه.

الهوامش

1) يقول ابن نباتة في كتابه: "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" هنا ما نصُّه: "هذا البيت للمتنبي، وحَسُنَ التمثيل به ها هنا لمطابقة المعنى في طلب ما لا يوجد، لا سيما إن كان التصحيف أريد بلام النائل بقلب اللام كافًا، فإنَّ ذلك في هذا الموضع يكون عجبًا. وكثيرًا ما يعتمد أهل الظرف شبيه ذلك في مكاتباتهم / ص37 من الكتاب المذكور/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار الفكر العربي. ولا أدري كيف ذهب فكر ابن نباتة في هذا الاتجاه! ترى هل يمكن أن يقصد ابن زيدون هذا في كلامه عن حبيبته؟ إن هذا لا يمكن أن يجول له بخاطر لأنه ينافي طبع الرجل العادي، فما بالنا بابن زيدون؟ وفيمن؟ في ولادة ربيبة القصور التي أبدع فيها نونيته العبقرية الخالدة على مدى الدهور!

2) "الرسالة الهزلية" للدكتور علي أحمد عبد الهادي الخطيب، حولية كلية اللغة العربية بجرجا، المجلد 2، العدد 1، ديسمبر 1998م، 261- 269.

3) هو علي بن مسعود الجركسي اليشبغاوي القاهري ثم الدمشقي (810- 868هـ). نعته ابن العماد بـ"الإمام العلامة"، وقال ابن حجر: شارك مشاركة جيدة في فنون، وحج مرارًا، وسافر في بعض الغزوات، وأَمَّ ببعض المساجد، ولكنه سلك في شعره طريقة هي غاية في المجون والهزل والخلاعة، فراج أمره فيها جدًّا. ورحل إلى دمشق فتعاطى بها "خيال الظل" ومات بها. له كتبٌ منها "نزهة النفوس ومضحك العبوس"، و"قرة الناظر ونزهة الخاطر" ومقامتان".

4) ديوان ابن سودون في "الموسوعة الشعرية" التي أصدرتها دبي، 155.

5) انظر الصفحات التي خصصتها لهذا الشاعر الناثر من كتابي: "النقد الثقافي في كتابات نقادنا القدماء مع دراسة خاصة عن نسق الفحل عند د. الغذامي" (114- 116). وتجد هذا النص تحديدا ص115- 116.

6) انظر ص21 من "أخبار الحلاج" لابن الساعي ضمن الإصدار الأول من "الموسوعة الشعرية" – دبي.

7) انظر ص360- 361 من كتاب "سراج الملوك" للطرطوشي ضمن الإصدار الأول من "الموسوعة الشعرية" – دبي.

8) ابن نباتة "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، 25.

9) "الرسالة الهزلية" للدكتور علي أحمد عبد الهادي الخطيب، حولية كلية اللغة العربية بجرجا، المجلد 2، العدد 1، ديسمبر 1998م، 265- 269.

10) أستغرب وصف ولادة لابن زيدون بـ"المسدس"، ذلك اللقب الذي لا أذكر أحدًا من عصرنا أو من العصور الغابرة استعمله سوى ولَّادة. وسر استغرابي أنه كان بينها وبينه حب مشتعل طويل، وقعت فيه مسرات وهناءات. من ذلك قوله إنه في لقاءاتهما كأنه يلثم أقحوان الثغور ويقطف رمان الصدور. فكيف تأتي بعد هذا كله وتصف حبيبها السابق بأنه لوطي ومأبون وزان وديوث وقرنان وسارق؟ إن هذا الكلام يعيبها هي أيضا؛ إذ السؤال هو: كيف عشقت رجلًا فيه جميع تلك الرذائل على مدار ذلك الوقت الطويل؟ الغريب، بالمناسبة، أن هناك امرأة بارعة الجمال كانت صديقة لصيقة لولَّادة رِدحًا من الزمن اسمها مهجة بنت التياني اتهمت ولَّادة بأنها وضعت ولدًا. وهو ما يعني أنها ترميها بالزنا. ترى أهو الغضب أخرجها عن حد الاتزان؟ أم ترى البيتين وما شابههما من شعر هو شعر محمول عليها من خصوم ابن زيدون لتشويه صورته؟ كذلك فقولها في بيتين آخرين:

أنـــــا والله أَصْـــــلُح للمعـــــالِي وأمشـــــي مشـــــيتي وأَتِيـــــهُ تِيهـــــا

وأُمْكِـنُ عاشـقي مـن صـحن خـدي وأعطـــــي قبلتـــــي مَـــــن يشـــــتهيها

قول غريب، إذ مَن ذا الذي يمكن أن ينكر على بنت خليفة أن تصلح للمعالي أو تتيه حتى تحاول أن تثبته، بل وتحلف على ذلك؟ كما أننا لم نسمع بمَن تعرَّض لها طالبًا منها قبلةً بناء على عرضها الشهي اللذيذ المكتوب شعرًا على فستانها يراه كل المارة في الشوارع. كما أن كلامها في البيت الثاني، وبخاصة في الشطر الثاني منه، هو كلام امرأة تبذل نفسها للرجال على إطلاقهم بذلًا وليس لديها أي تحفظ أو تصاون. الواقع أن حياة هذه الفتاة بعد موت والدها كلها ألغام. أم ترى هذا كله تخرصات وأنحالا؟!